عنترة: الفارس النبيل في ساحة الذكورة

فادية حطيط

كيف تتشكل وتتغير التصورات الاجتماعية؟ كيف يحدث أن يمتلك مجتمع معين تصوراً معيناً حول شخص او حول حادثة يظل مستمراً على الرغم من مرور السنوات والتغيرات الاجتماعية الكثيرة؟ وما هي أواليات عمل الذاكرة الشعبية؟ وبمعنى آخر كيف تنتقي الذاكرة مواضيعها وأشخاصها؟

يرى البعض أن التاريخ يحاول أن يرصد ما يتعلق بنا كبشر من ضروب الحركة، ويحاول أن يسجل التغيير الحاصل ساعياً قدر ما يستطيع وبمقدار ما تمكنه أدواته، إلى الموضوعية، لكنه يبقى بهذه النسبة أو تلك أسير وجهة نظر الجهة التي دوّنته. أما الذاكرة الشعبية فتسعى، بعيداً عن كل ما هو رسمي، إلى حفظ ما تشاء من صفحات الأيام، على طريقتها الخاصة، مخلصة لروح الشعب وجوهره، وهي تمثل ضمير الأمة، والشيء الثابت فيها، وبالتالي نراها أكثر إنصافاً وعدلاً في تناول الكثير من الشخصيات والأحداث، كيف لا وهي بصورة أو بأخرى رد الفعل الشعبي على وقائع التاريخ، وبالتالي فهي صورة انطباع الحدث في ضمير الناس.[1]

حين تنتقي الذاكرة الشعبية شخصاً او حادثة، فإنما تقوم بذلك لأنها ترى فيه أو فيها أمراً أساسياً في ما يبتغيه أفراد المجتمع لأنفسهم، وتشكل بذلك إحدى علامات الترسيمة الأساسية لمجتمع معين. إن من شأن الذاكرة الشعبية أن تضخ الطاقة اللازمة من أجل تشغيل التصورات.

وإذا كانت بعض الأمور لا تطفو على سطح الوعي، فإنها كثيراً ما تكون متقوقعة في ركن عميق من ذاكرتنا، لا نعرف من أين جاءت ولا كيف وصلت الينا. لذلك، كلما تناولنا موضوعاً معيناً تولَد لدينا حدس بأننا لا نقاربه من عدم وإنما ثمة ما يقبع خلف المقاربة. إنها تلك التصورات المنبجسة في ذواتنا، ليس من خلال الذاكرة فقط، وإنما ترشح كذلك من الأحاسيس.

هذا الركن القصي من الذاكرة/الأحاسيس، نسميه الوجدان. وأكثر ما يخافه المتمسكون بالثقافة وبالهوية وبالتوازن الشخصي هو تعمية هذا الوجدان أو إضاعته. إنه المنارة التي تحفظ الذات. غير أن هذا الوجدان الذي كثيراً ما يقبع خلف مواقفنا وتمثلاتنا، لا يمكن الركون الى موضوعيته من

[1] ثائر زين الدين، عن الأبطال والطغاة في الذاكرة الشعبية، ثقافة وفنون.، http://www.an-nour.com/192/culture/culture-01.htm

الناحية المعرفية البحتة، إنه يلوّن أو يشذّب أو يقوّي بعض سمات المواضيع على حساب سمات أخرى. إنه منحاز بالضرورة الى العيش اليومي، والى ميول الناس البسطاء واهتماماتهم وبالأخص إلى طموحاتهم.

ترتسم الطموحات الشعبية في الوجدان متخذة لها أبطالاً وأعمالاً ومسرحاً. وكما هو الأمر في قصص الأطفال، فإن الغلبة تكون دوماً للأبطال الشعبيين. هؤلاء الأبطال لا يعملون وفق أهوائهم أو ضرورات اللحظة، بل هم مقيدون إلى أدوار مرسومة سلفاً فقد " يكون مفهوم البطولة واحداً من أكثر المفاهيم تنوعاً وتعدداً ونسبية، لكنه في كل الأحوال يرتبط أولاً بالشجاعة والبسالة والجرأة، وينطوي ثانياً على قسط متفاوت من التضحية، أقصاها التضحية بالنفس لأجل هدف سام أو غاية نبيلة. وقد فاخرت الشعوب والأمم بأبطالها دائماً، ونسجت الأساطير والحكايات المختلفة حولهم"[2]. وثمة أعمال شعبية كبيرة "تتناقلها الأجيال كسيرة عنترة بن شداد والزير سالم، والسيرة الهلالية، وسيرة حمزة البهلوان، وسيرة الأميرة ذات الهمة، فهي في معظمها ترتكز على أحداث تحكي أيام العرب، وحروبهم، ولكن الوجدان الشعبي قد أبعدها عن حقائق التاريخ وأرض الواقع، ليسبح بها في سماوات الخيال والخوارق ويضفي على أبطالها سمات التفوق الإنساني الذي يعلو في بعض الأحيان على القدرة الإنسانية"[3] .

إن المصدر لما ترسب في قاع فكرنا وتصوراتنا وبالتالي لانحيازاتنا يكمن في الوجدان الذي تشكل سير الأبطال الشعبيين بعض موارده. وليس من شك في أن الثقافة العربية السائدة قد وجدت لها في تلك السير معيناً للترسخ مستخدمة كل الأواليات الملائمة، منها المتخفي والموارب، ومنها الخفيف الظل والماكر ومنها أيضاً البطولي. ومن علامات قوة أثر ذلك الوجدان الشعبي انه يصيب ليس فقط من هم أصحاب المصلحة الأولى فيه أي الذكور بل يصيب أيضاً اولئك الذين يهمشهم، أي النساء. ونعتقد أن السقف الزجاجي الذي تتكلم عنه الحركات النسائية باعتباره يشكل حاجزاً غير مرئي أمام سعيهن للمساواة مع الذكور، إنما هو متشكل من مثل تلك التصورات الوجدانية العميقة والمتخفية الانحياز.

---

[2] المرجع نفسه

[3] WWW.arabicmagazine.com; العدد 362 السنة 32 ربيع الأول 1428 هجرية أبريل 2007 م.

مكانة عنترة بن شداد:

من بين الأبطال الشعبيين الذين ساهموا في صياغة الوجدان العربي، سنتوقف عند عنترة بن شدَاد، بسبب كونه ما زال حاضراً بقوة في ثقافتنا العربية. ويكفي النظر فيما يرد على ألسنتنا بشكل عفوي (هل يظن نفسه عنتر؟! ليش معنتر؟ هيدي بدَا عنتر بن شداد... الخ)[4] لنتلمس قوة حضوره. ولا نعتقد بأن عربياً راشداً (وقاصراً؟) لم يسمع بعنترة بن شداد، ولم يكوِّن عنه صورة ما في ذهنه.

والملفت أن حضور عنترة في الثقافة ليس حضوراً أثرياً جامداً متوقفاً في هيئة معينة، بل إنه ما زال يثير المواقف والحساسيات المختلفة بإزاء النموذج الذي يقدمه. ونقرأ على الأنترنيت مثالا على ذلك في ما كتبه احد الشبان العرب حين زار قبر عنترة (في صحراء نجد في السعودية) فيقول " نعم مات عنتر ..ولكن لا تزال سيرته على كل لسان رغم مرور 1500 عام على وفاته. حياة عنتر معاناة ..حب ..عشق ..خيانة من محبوبته ..خذلان من أبناء قبيلته العنصريين الذين رغم أنه كان فارسهم وأشجعهم ولكن كل هذا لم يشفع له عندهم بسبب لونه الاسود الذي ورثه عن امه التي كانت عبدة سوداء. هذا الرجل الذي ارتبط في عقولنا بالشهامة والفروسية والرجولة كان من اكثر الناس شفافية ورقة .. عندما تحسست هذا القبر بيدي احسست بالعبرة تخنقني ..بشعور غريب لا اعرف كيف اصفه لكم ..تحسست معاناة رجل ..عانى من قلبه وحبه ..عانى من قومه العنصريين. مات عنتر ولم يمت ذكره ..فقد خلده عشقه وشعره وفروسيته ..سلاما عنتر مني . سلاما من عالم الاحياء الى عالم الاموات"[5].

ولم يكن عنترة معروفاً من قبل أبناء جلدته فحسب، وإنما امتد صيته في العالم أجمع. في فرنسا مثلا هو نموذج عن الفروسية العربية، ونجد أن أحد الكتب المدرسية لتعليم اللغات للطلاب الفرنسيين في المرحلة المتوسطة يستخدم بطاقة أنشطة تربوية عنوانها "الفروسية" ويقدم عنترة بوصفه "شخصية أسطورية (personage mythique) ويمثل الوجه الأول للفروسية في العالم العربي، كما ان سيرته ومعلقته هما شكلان رئيسيان من الأدب العربي الكلاسيكي (الشعبي والمثقف)"[6]. وفي روسيا كذلك نقرأ أن المؤلف الموسيقى الروسي المعروف ريمسكي كورساكوف استوحى سيمفونية عام 1868 من

---

[4] ويبدو ان مثال عنترة يجذب السياسيين بشكل خاص. للمثال تقول نايلة معوض في إحدى تصريحاتها : عنترة بن شداد يعجز عن الامساك بالأجهزة؛ انظر جريدة البلد في 3 حزيران 2005. بالمقابل نقرأ في جريدة النهار 20 حزيران 2007 أن عضو شورى "حزب الله" الشيخ محمد يزبك صرَح أن فريق 14 آذار يضرب المبادرات بمزيد من العنتريات...

[5] http://arabia.nireblog.com/rss2/11946/index.xml

[6] Collection « l@ngues_en_ligne », *SCÉRÉN – CNDP :*

.http://www.cndp.fr/secondaire/languespratique/arabe/chevalerie/college.htm#A2

ملحمة عنترة وأعطاها اسمه[7].

ولكن على الرغم من أن عنترة بن شدَاد ما زال مؤثراً حتى اليوم، إلا أن ذكره في العالم العربي لا يذهب دائماً في الوجهة الإيجابية. فنقرأ مثلا في إحدى المقالات المنشورة على الانترنيت أن عنترة بن شداد وحاتم الطائي هما سبب عنوسة الفتيات حالياً، ومفاد الخبر "أن الفتاة المتعلمة ترغب في الزواج ولكنها تضع الشروط المستحيلة في زوج المستقبل ومنها أنهن يفكرن بأن يتزوجن رجلا من أمثال عنترة بن شداد في الشجاعة والفروسية ومثل حاتم الطائي في الكرم"[8]. ونفهم من هذا التعليق أن الذكور والإناث اليوم مختلفين في كيفية تلقي نموذج عنترة، الإناث ما زلن يجدن فيه نموذجاً رومانسياً، في حين تبدو نظرة الذكور اليه اكثر سلبية، ويبدو أن وزن الشجاعة والفروسية الذي أورثه عنترة لسلفه من الرجال بات عبئاً ثقيلا لا يمكنهم حمله.

وتنبغي الإشارة هنا إلى ان عنترة لا يحتكر المكانة العليا في سلم الرجولة في الوجدان العربي، بل يشاركه فيها ابو زيد الهلالي بل أن هناك من يرى إن هذا الأخير هو صاحب الحق فيها[9]. فقد "آثر الشعب العربي هذه الشخصية (أي الهلالي) بحبه وأعطاها مكان الصدارة ليس فقط بين أبطال سيرة بني هلال وإنما أيضاً بين أبطال السير الشعبية جميعاً "[10]. ولو قيض لنا دراسة شخصية أبي زيد الهلالي (الذي عاش منتصف القرن الرابع الهجري) لربما وجدنا أنه أكثر رجولية من عنترة. فهو يمتلك مثل شجاعة عنترة ولكن يزيده بالحيلة والذكاء، كما أنه غير موسوم بتلك الشائبة التي أضعفت رجولة عنتر، ألا وهي الأصل الأمومي الأسود. ثم أن هدف ابي زيد الهلالي كان الحفاظ على القبيلة وسلطتها وهو لا يخلط هذا الهدف بأي نزوع فردي خاص كما هو حال عنترة، الذي سعيه

---

[7] http://www.answers.com/topic/antarah-ibn-shaddad

[8] http://www.bafree.net/forum/viewtopic.php?

[9] في جولة على غوغل باللغة العربية، بتاريخ 17 نيسان 2007، وجدنا أن ابي زيد الهلالي لديه العدد الأكبر من المواقع (حوالي 512,000 موقع) يليه عنترة بن شداد (355,000) يليه الزير سالم (320000) ثم سيف بن ذي يزن (69,700) ثم الأميرة ذات الهمة (20,900) ثم علي الزيبق (20,100) ثم حمزة البهلوان (508) الخ

[10] تبدأ هذه السيره ببيان المجتمع القبلى في الجزيرة العربية عن طريق قبيلة بنى هلال بطل أشهر الملاحم الشعبية العربية المعروفة بسيرة بني هلال وقد صورت الملحمة وقائع العرب في الفترة من منتصف القرن الرابع الهجري وحتى منتصف القرن الخامس الهجري إبان عصر الدولة الفاطمية . وعلى الرغم من شهرته لم يكن أبو زيد الهلالي محور هذه الملحمة وانما واحد من أربعة انتهت إليهم الرياسة في القبيلة وهم حسن بن سرحان المعروف ب(أبي علي) الملقب بالسلطان ودياب بن غانم والقاضي بدير بن فايد وأبو زيد بن رزق الهلالي . ولقد مهدت الملحمة ولادة هذا البطل بحادث فذ جعله يبدو كانسان خارق . وترتكز بطولة أبي زيد على دعامتين الأولى الشجاعة وقد بالغ فيها الشعب العربي حتى أخرجها من الممكن وتجاوز بها الطاقة البشرية وكاد يعتبرها من الخوارق أما الدعامة الثانية فهي الحيلة وقد أهله الشعب العربي لها بأن علمه مختلف العلوم والفنون واللغات فهو يستطيع أن يتنكر في أي زي وأن يحترف أي مهنة وأن يتحدث بأي لغة . http://ar.wikipedia.org/

الأهم كان وصال عبلة. ولكن ثمة إقرار أن سيرة عنترة بن شداد هي " الاخت الشقيقة لسيرة بني هلال، عرف المتخصصون في الاولى بالعناترة، والمتخصصون في الثانية بالهلالية."[11]

ومن جهتنا فلقد آثرنا أن ننظر في شحصية أبي الفوارس عنترة بن شداد لأن سيرته ارتكزت على علاقة حب أساسية مع عبلة التي لأجلها قدم كل التضحيات، مفترضين أن نموذجه يقدم السمات الأساسية للرجل العربي الفاتن، معبود النساء العربيات. ولكن هل فعلا ما زالت صفات عنترة تلقى هوى في نفوس الفتيات أم أنه صار عتيقاً وإنما الاحتفاظ بسيرته هو كمثل الاحتفاظ بالبيوت القديمة، ليس للسكن، وإنما للفرجة أو للحنين أو لاستعادة الماضي الجميل؟ وما هي عناصر الشخصية لدى عنترة بن شداد التي أدت إلى حفظه في الوجدان؟ هل ما زالت، بعضها على الأقل، قريبة من النموذج الرجولي المرغوب؟ وهل ما لحق به من ظلم شكّل عاملا مساعداً على الاحتفاظ بذكراه؟

في وصف عنترة:

تعرَفنا الدراسات حول شخصية عنترة بن شدَاد [12] إن عنترة شخصية حقيقية، عاشت في القرن السادس الميلادي قبل الدعوة الإسلامية في شبه الجزيرة العربية. وعنترة فارس وشاعر شهير، من أصحاب المعلقات... أهم ميزات شخصيته النقاط التالية:

. فروسية نادرة قامت على الشجاعة والبسالة والمروءة.

. شاعرية عالية نصبّت صاحبها واحداً من فحول الشعر العربي.

. عصامية فريدة نقلت صاحبها من مرتبة أحد عبيد عبس، إلى واحد من أهم سادتها، عبر انتزاع الاعتراف بالأبوّة.

ويقال أن عنترة وهو ابن الأمة الحبشية تمكّن أن يجبر شداداً (أي والده) وهو أحد سادة عبس على الاعتراف به ابناً شرعياً، واستطاع أن ينافس الزعماء البيض في حب عبلة بنت مالك (أي عمه)، ثم جعل مالكاً . وهو أخو شدَاد وأحد سادة القبيلة . يزوّجه ابنته، كل ذلك عبر نضال طويل، وصراع مرير خاضه مع الوسط المحيط[13].

---

[11] أنظر تعريف الناشر لكتاب سيرة عنترة بن شداد، تأليف رحاب عكاوي، دار الحرف العربي، 2003، في

http://www.adabwafan.com/display/product.asp?id=53103

[12] مرجع مذكور

[13] وهنا نلفت النظر إلى أن الروايات لا تجمع حول زواج عنترة من عبلة، فإذا كان البعض منها يؤكده، فإن البعض الآخر ينفيه. وهناك روايات تزوّج عنترة لغير عبلة وأكثر من مرة كما تجعله يخلف ذرية، فهو قد " خلّف ابنين، الأول هو الغضنفر وأمّه أخت ملك الرومان تزوّجها سرّاً في روما حيثُ بقيت مدّة من الزمن ثم رحلت إلى القسطنطينية، والثاني هو جفران وأمّه أميرة إفرنجية" أنظر:

-"'**Antar, Romance of**." Encyclopædia Britannica. 2007. Encyclopædia Britannica Online.

أما الصفات الأبرز في شخصية عنترة مثلما نستمدها من قراءة سيرته[14] فهي:

– الشباب: عنترة شاب، هذه صفة أولى. ولا نعرف شيئاً عن وسامة هذا الشاب. ويمكن أن نفكر أن اسوداد لونه ليس متناسباً مع المفهوم التقليدي للوسامة آنذاك.

– القوة والصلابة والبطش: فكان عنترة "مع صغر سنه شديد البطش فاذا تجاسر عليه أحد أذاقه الويل"[15]. وفي سيرة عنترة التي نعتمدها في هذه الدراسة وتبلغ 384 صفحة، هناك تقريباً في كل صفحة من صفحات الكتاب معركة دارت إما بين قبيلة عبس وإحدى القبائل الأخرى وأتى فيها عنترة منجداً ومحققا النصر للقبيلة، وإما معركة فردية خاضها عنترة مع أحد الفرسان رداً على عدوان او طلباً لأمر او دفاعاً عن مظلوم.

– حامي النساء: وأقوى المعارك كانت تلك التي يخوضها عنترة دفاعاً عن النساء، وعبلة على رأسهن " وقد خرج الرجال للحرب مرة وكان عنترة بين النساء فهجم سبعون فارساً على النساء فما كان من عنترة الا أن قتل ما قتل وطعن رئيسهم وقتله ففر الجميع هاربين تاركين الغنائم والنساء"(ص4) وعديدة هي المناسبات في السيرة التي تبرز عنترة سائراً مع النساء لحراستهن.

– مدافع عن العرض: لطم احد العبيد امرأة عجوزاً " وكان عنترة حاضراً فأخذته النخوة العربية... فإذا بعنترة يمسك العبد ويرفعه ويلقيه على الأرض ثم يضربه ضربة تقضي عليه"[16] . ويقول عنترة في موقع من سيرته " أنا طبيب بني عبس اذا اعتلت، وحاميها اذا ذلت، وحافظ حريمها اذا ولت" (ص 75).

– يعطي لأهله الاولوية على نفسه: إن عنترة وبعد ان لاقى من الأهوال اشدها، وبعد ان شدَ أزر بنى عبس حتى استتب لهم الأمر، قد كان له ان يتزوج عبلة (بحسب السيرة الحالية) فأقيمت الأفراح، ولكن حين همَ عنترة أن يخلو بعروسه، سمع أصوات المهاجمين، فأقسم عنترة ألا يدخل خباءه ولا يستمتع بعروسه إلا بعد ان يرد هيبة بني عبس (ص 283)

– صاحب نخوة ومروؤة وشهامة: "قال الراوي هذا وأولاد الملك زهير يتعجبون من عظم مروءته (الهاء تعود لعنترة) وشدة احتماله ونخوته" (ص 130)

– حنون وودود: لا تجعل السيرة موقعا مميزاً لأم عنترة ولا لمشاعره تجاهها. غير ان الحنان

---

http://www.britannica.com/eb/article-9007747

- « l@ngues_en_ligne »; ttp://www.cndp.fr/secondaire/languespratique/arabe/chevalerie/college.htm#A2

[14] قصة عنترة بن شداد، تأليف يوسف بن اسماعيل، ملخصة بقلم اسامة قطان، دمشق، دار كرم، دون تاريخ.

[15] مرجع نفسه.

[16] مرجع نفسه.

والود الكبير يكنهما لقبيلته اولا "والله يا وجوه العرب، أنا لا أطلب إلا مودتكم ولا أطمع إلا في أخائكم ومحبتكم" (ص 296)

–عاشق مخلص : أخلص عنترة لحب معشوقته عبلة التي كانت أجمل من القمر، وأرتضى ان يكون عبداً لها عن طيب خاطر. فحين سألته أمه عن حبه لها أجاب " يا سيدتي، هل رأيت من يبغض مولاته! أي والله أحبها وحبها لا أنكره وصورتها لا تبرح ناظري"[17] "إني احب عبلة بنت عمي مالك بن قرَاد وهي التي طيرت من عيني لذيد الرقاد، وابتلتني بطول العناء والسهاد"[18]

– شاعر فصيح: نقرأ في السيرة أن بني عبس "أضرموا النار ودارت الكاسات ولعبت الخمر بعقول السادات عندئذ قال زهير لولده مالك: في مثل هذا الوقت يستحب سماع كلام عنترة من لسانه، فإنه والله سيد شعراء زمانه" (ص 16). وكانت عبلة السبب الأول في فصاحته "لأنه كان كلما ذكرها انطلق لسانه بالشعر الرقيق". ومن أشهر شعره معلقته "التي هي من القصائد الطوال الأثيرة عند العرب التي تحمل نفساً ملحمياً بطولياً رائع الوقع"[19] وهي بعنوان "هل غادر الشعراء من متردَم؟" ونقتطع منها الأبيات المتفرقة التالية:

هل غادر الشعراء من متردَم أم هل عرفت الدار بعد توهم؟

يا دار عبلة بالجواء تكلَّمي وعمي صباحاً دار عبلة واسلمي

دار لآنسة غضيض طرفها طوع العناق لذيذة المتبسم

ولعنترة قصائد غزلية كثيرة، ومنها ما طارت شهرته وقد يكون من بعض أجمل ما قيل في الغزل:

ولقد ذكرتك، والرماح نواهل مني، وبيض الهند تقطر من دمي

فوددت تقبيل السيوف، ولأنها لمعت كبارق ثغرك المتبسم

– مرهف، حساس، سخي الدمع: "الآن وقد انقطع مني الرجاء، ولم يبق لي في هذه الأرض مقام ... ثم زاد به الأمر فتنهد وبكى... وتصاعدت زفراته ... وتساقطت الدموع على وجناته..." (ص 14)؛ "ففاضت دموعه وتهاطلت على خديه" (ص 15) "لما آوى عنترة إلى مضجعه تأجج الشوق لعبلة في قلبه وأرقه خيالها فقام إلى بيت مالت بن زهير... بكى بين يديه وجلس أمامه واشتكى اليه وجده وهيامه " (ص 22) وكثيرة جدا هي الاشارات في السيرة الى بكاء عنترة.

---

[17] مرجع نفسه؛ ص 6

[18] مرجع نفسه؛ ص 14

[19] ديوان عنترة بن شداد، حققه وقدَم له فوزي عطوي، بيروت، دارصعب، الطبعة الثالثة، 1980

– كريم: "قدم زهير عشرة جمال محملة بصناديقها وأموالها وفرَق كثيراً من التحف والأموال على جميع أهل الحي فكان في سخائه أكرم من حاتم طي. ولم يبق أحد من النساء والرجال إلا غمره بالعطاء والنول وما زال يبذل...." (ص 79).

– متواضع ومؤدب: "أخبرت النساء رجالهن ما جرى من عنترة... فزادت رغبة شدَاد (اي والده) فيه وقبَله بين عينيه وأخذه بيده ليجلسه بين الشرفاء فأبى وعاد ووقف مع العبيد، وقال : لا والله يا مولاى فعجبت فرسان العرب من أدبه..." (ص 10) و"كان عنترة قد وقف للخدمة مع العبيد فقال الملك، لن تجلس إلا بين السادات ولا شربت قدحى إلا معك..." (ص 12) "نهض (الملك زهير) وصحب معه اولاده وعشرته وأجناده... وساروا للقاء عنترة. وكان عنترة قد سبق عبيده حتى لا يتعب مستقبليه..." (ص 79)

– غني متأنق: "خلع (الملك زهير) على عنترة خلعة لا يلبسها إلا الأكابر، وعممه بعمامة معلمة بالذهب وقلَده بسف يدعو إلى العجب...." (ص 13) "ترجل عنترة ... والطيب يفوح من ثيابه" (ص 13).

وترد في سيرة عنترة بن شدَاد مقاطع عديدة توجز وصف عنترة بشكل عام " قال عمرو.... هو (أي عنترة) الأسد الواثب والليث الغالب فارس المشارق والمغارب الدي أفنى الأبطال ومزق الكتائب البطل الجواد الذي قهر بسيفه الأبطال الشداد، قادح النار من غير زناد حامي قبيلة عبس الأمير عنتر بن شداد" (ص 135) وفي مكان آخر " قال شيخ من الحاضرين... إنه فارس اسمر شديد البأس لطيف المحضر. ليس له شبيه في فرسان العرب قد زلت له رقاب الملوك وأصحاب المناصب والرتب..." (ص 135).

هذه هي الصفات الأساسية التي نستقيها من السيرة، ولكن هل هي ذاتها ما زالت معششة في أذهان جيل الحاضر؟ لمعرفة الجواب طلبت من طالبات صفي في السنة الجامعية الرابعة وعددهن إحدى وعشرين فتاة ما بين العشرين والخامسة والعشرين من عمرهن أن يكتبن ما تعرفنه عن عنترة بن شداد. وأورد فيما يلي الصفات التي اعطينها له، وأضع بين هلالين عدد المرات التي وردت هذه الصفات في أقوالهن:

حبيب أو عاشق عبلة (20)

شاعر (15)

من العصر الجاهلي (14)

فارس ومحارب (10)

لم يتزوج عبلة (9)
شجاع وشهم (7)
عربي (6) أسود (6) اشتهر بالمعلقات او بقصائد المدح والذم والغزل (6)
غير وسيم، بشع ، دميم (5)
أسمر (4)
طويل القامة (3) عبد (3)
لديه معاناة وأشجان وأحزان (2) قصير القامة (2)
زير نساء (1) شاب (1) قوي الجسد (1) مخلص ووفي لعبلة (1) رومنسي (1) محبوب من القبيلة (1) ابوه من زعماء القبيلة (1) تزوج عبلة (1) مات غدرا (1) يحب فتاة جميلة (1) انتحر من أجل عبلة (1) من أم عبدة (1) يغار على عبلة (1).

نلاحظ من مجموع هذه الصفات أن الذاكرة الأنثوية تسبغ على عنترة صفات إيجابية بمعظمها (ما عدا ما تعلق منها بالشكل). والصفتان الأكثر وروداً هما عاشق عبلة والشاعر. عنترة العاشق هو أكثر ما تحفظه الفتيات (وربما استمرار قوة هذه الصفة لدى عنترة تجعلنا نميل الى تصديق عدم زواج عنترة حيث لم يتح للعشق أن يخمد) ولكن ليس العاشق الصامت بل المتكلم الذي يعلن على الملأ حبه شعراً وقصائد. ويمكن الاعتقاد بقوة أن الجانب الشعري في شخصية عنترة كان له أبلغ الأثر في شهرته. تبعا لما للشعر في الوجدان العربي من قوة تشكيل كبرى، لا بل أن الذات العربية برأي الغذامي هي ذات شعرية وأنها "رضيت بأن تحول نفسها إلى ديوان شعر، وتترجم وجودها إلى قصيدة"[20]، وهو ينسب الى الشعر الخلل النسقي في تكوين الذات وفي عيوب الشخصية الثقافية.

ولكن، مع تطور وضع المرأة وامتلاكها مزيداً من الحقوق ومن المقدرة على إدارة دفة حياتها، هل أن نموذج عنترة ما زال بإمكانه أن يجذب شابات اليوم؟ وهل يتطابق مع ما يسمى النموذج الرجولي المرغوب؟

النموذج الرجولي الحديث في لبنان:

ثمة دراسات في لبنان حول النموذج الرجولي الذي تعجب به الإناث. وسنتوقف عند أبرز سماته من أجل المقارنة بينه وبين الصفات التي تتسم بها صورة عنترة. يستخلص زكريا البتي في

[20] عبد الله الغذامي، النقد الثقافي قراءة في الأنساق الثقافية العربية، بيروت، المركز الثقافي العربي، 2000، ص 98

دراسته[21] أهم السمات التي تميز صورة الرجل في الواقع وهي:

- معجب بنفسه، يحب المديح، صاحب شخصية متميزة، يغار، متأكد من نفسه، ذكوري، طموح، يتأقلم مع الظروف، يدافع عن مبادئه، قوي الشخصية، رياضي.

أما على الشاشة فيتوصل الباحث نفسه إلى أن أهم السمات المرغوبة لصورة الرجل على الشاشة هي:

- قوي، ذكوري، يتكل على نفسه، قوي الشخصية، متأكد من نفسه، مستقل، جاد، كافي نفسه، رياضي، مجازف، صاحب شخصية متميزة، له عقل محلل، طموح، منافس، يدافع عن مبادئه، له قدرات قيادية.

ولقد حاولنا ان نستخدم نفس الجردة التي استخدمها الباحث (جردة بم للأدوار الجنسية) ولكن عوضاً عن استجواب الأفراد حول الصفات التي يرونها ملائمة، فإننا سنقوم بأنفسنا بوضع العلامات تبعاً لما نراه ملائماً بعد قراءة سيرة عنترة وتكوين صورة ذهنية مشبعة بصفاته. وسنعتمد طريقة البتي في الاحتساب، فنقوم بإعطاء علامة من 1إلى 7 حول مدى صحة انطباق هذه الصفات على شخصية عنترة تبعاً لما وجدناه بعد قراءتنا سيرة عنترة. في حال رأينا أن الصفة المذكورة لا تنطبق أبداً على عنترة نعتبرها غير صحيحة (ونعطيها علامة 1) وفي حال كانت غالباً غير صحيحة (نعطيها علامة 2) بالمقابل إذا شعرنا بأن الصفة المذكورة كانت في بعض الأحيان صحيحة (نعطيها علامة 3) وأحياناً صحيحة (نعطيها علامة 4). أما إذا وجدنا أنها غالباً ما تكون صحيحة (فنعطيها علامة 5) أو وجدنا أنها عادةً صحيحة (نعطيها علامة 6) وأخيراً إذا وجدنا أنها دائماً أو تقريباً دائماً صحيحة فإننا نعطيها العلامة الأكبر وهي 7. ولقد استخلصنا بأنفسنا ما وجدناه متناسباً مع شخصية عنترة، بحسب الجدول التالي:

الصفات الذكرية	الصفات الأنثوية	الصفات المحايدة
1. يتكل على نفسه (4)	2. يرضخ(2)	3. يساعد(6)
4. يدافع عن مبادئه (7)	5. بشوش(2)	6. متقلب المزاج(1)
7. مستقل(4)	8. خجول(3)	9. صاحب ضمير(7)
10. رياضي (1)	11. عاطفي(5)	12. مدعي(1)

[21] زكريا البتي، صورة الرجل في متخيل الشابة اللبنانية كما تراه في الواقع وكما يعرض على شاشة التلفزيون، رسالة بدلوم الدراسات العليا في علم النفس، بإشراف د. إنيسة الامين مرعي، كلية الآداب والعلوم الانسانية، العام الجامعي 1997-1998 ، ص.ص 98-99

13. متأكد من نفسه (5)	14. يحب المديح(2)	15. سعيد(2)
16. قوي الشخصية (5)	17. وفي(7)	18.لا يتبنأ بما سيفعله(5)
19. قوي (7)	20. أنثوي(1)	21. يتكل عليه(7)
22. له عقل محلل (3)	23. يشعر مع الآخر(7)	24. يغار(7)
25. له قدرات قيادية (4)	26. متجاوب مع رغبات الآخرين(7)	27. صادق(7)
28. مجازف (6)	29. متفهم(5)	30. متكتم(5)
31. يتخذ القرارات بسهولة(6)	32. رؤوف(4)	33. نيته صافية(7)
34. كافي نفسه(7)	35. متحمس لتخفيف الآلام(1)	36. معجب بنفسه(7)
37. مسيطر(6)	38. كلامه لطيف(6)	39. محبوب(5)
40. ذكوري (6)	41. دافئ(7)	42. جاد(5)
43. يتخذ مواقف(7)	44.حساس جداً(7)	45. مسالم(1)
46. عدواني (7)	47. يخدع بسهولة(7)	48. فاشل(3)
49. يتصرف كقائد(5)	50. طفولي(5)	51.يتأقلم مع الظروف(4)
52. صاحب شخصية متميزة(6)	53. لا يستعمل كلام فظ(3)	54. غير منظم(6)
55. منافس(7)	56. يحب الأطفال(1)	57. مخطط(3)
58. طموح(7)	59. لطيف(6)	60.عادي(1)

وتبعاً لنفس طريقة احتساب البتي لنتائج العينة فلقد استخلصنا وسيط الذكورة ووسيط الأنوثة في صورة عنترة (الانطباعية الفردية الخاصة بنا) فكانا عاليين بحسب نظام التسجيل على جردة بم، وهما كما يأتي:

السلم	الذكورة	الأنوثة
الوسيط (في جردة بم)	65.91	55.85
الوسيط (في جردة عنترة)	78.57145	65.85715

إن العلامات الذكورية لدى عنترة تفوق وسيط الذكورة على جردة بم، كذلك فإن علاماته الأنثوية تفوق وسيط الأنوثة على تلك الجردة، مما يعني أن شخصية عنترة تصنف تبعاً لذلك السلم بالأندروجينية العالية[22]. ومثل هذه الملاحظة المفاجئة تستدعي التأمل.

[22] ولمزيد من التأكد من النتائج طلبت من طالبة دراسات عليا أن تقرأ سيرة عنترة لكي تتعرف على شخصية عنترة ومن ثم تضع علامات على نفس الاختبار ولقد دلت نتائجها على اتجاه مشابه للاتجاه الذي حصلنا عليه (مع أن درجة الذكورة كانت لديها أقل ارتفاعاً مما لدينا ودرجة الأنوثة أعلى مما لدينا أيضاً).

يرى الباحثون أن الاندروجينية هي امتلاك للتوازن بين الخصائص التي تعرَفها الثقافة كونها ذكورية أو أنثوية، وهي تميز الرجل المعاصر "الذي بدأ يتغير في كل العالم، وبدأ يتجه نحو ما يعرف بالأندروجينية، ولكن هذا التحول الذي يعتبره الباحثون ايجابياً ما زال تحولا جزئياً ولم يشمل كل الرجال"[23]. ونشير هنا إلى أن ثمة دراسة ميدانية حديثة أجرتها عزة شرارة بيضون، بينت أن نسبة الرجال الذكوريين في لبنان بلغت حالياً ما يقارب 53.0% ، في حين بلغت نسبة الشباب الأندروجينيين 26.7% [24]، فهل يمكن القول بأن عنترة كان شخصية متميزة سابقة لعصره؟

إن العودة إلى سيرة عنترة تبين أن شخصية عنترة تشترك مع ذكور زمانها في مختلف صفاتها، وهي لولا نسبها الأمومي الأسود لما تميزت عن أقرانها بشيء. وثمة في السيرة العديد من الاشارات التي تدل على ثقافة ذكورية مختلفة عن ذكورة اليوم مثلما تظهرها الدراسات. من تلك الإشارات مثلا الميل إلى الطرب والمجون والملذات والتأنق والتعلق الشديد بالنساء، وللمثال نقرأ "فلما سمع عمارة ذلك الكلام لعب به الغرام وقام من وقته ولبس أفخر ثيابه وأسبل شعره على كتفيه وتطيب وتعطر وركب جواده ..." (ص 23) وفي موضع آخر نقرأ عن شيبوب وهو أخو عنترة من أمه " أخذ يستمع إلى الغناء ثم صاح وأظهر الطرب ودار بين النساء والجواري (وكان متخفياً بلباس جارية) دوران اللولب، ورقص حتى أذهل النساء من حسن انعطافه، ولين اعطافه، فتعجبن من صناعه وعياقته، وأقبلن من كل جانب يتفرجن على خفته ورشاقته..." (ص 123). إذن وعلى الرغم من الشجاعة والصلابة والبطش إلا ان الرجال كانوا في اوقات أخرى يظهرون صفات النعومة والرقة والزينة، بما يبدو اليوم وكأنه تطور في سلوك الرجال حديث ومستجد.

فهل أن النزعة الذكورية المتشددة هي انتاج مجتمعات حديثة؟ او هل أن من خصائص الذكورة أن لا تتسم بمسار خطي محدد، بل تتغير بفعل عوامل اجتماعية متعددة؟ وهل يكون الدور النسائي من بين تلك العوامل المؤثرة في توجه الذكورة ناحية التشدد او ناحية الرخاوة؟

تشير ملاحظاتنا إلى أن الاجابة بنعم على كل هذه الأسئلة هو الأمر المرجح (بانتظار دراسات معمقة وأكثر تمثيلية للتأكد من ذلك). فيتفق كثير من الباحثين على الربط ما بين مفهومي الذكورة والأنوثة، واستحالة فهم واحدهما دون فهم الآخر. وللمثال، يقدم بعضهم مثالاً عن ترابط الأثر الاقتصادي على الجنسين "ففي السنوات القليلة الماضية كان لانتقال النساء إلى أعمال تؤمن الإعالة للأسرة، كما كان لتنامي مساهمتهن في القطاعات الصاعدة خارج الصناعة الثقيلة (خدمات، إعلان،

---

[23] البتي، مرجع سابق، ص 73

[24] عزة شرارة بيضون، الرجولة وتغيّر أحوال النساء، بيروت المركز الثقافي العربية، 2007، ص 129

إتصالات، إعلام، مكاتب) أن أثَرا في الجنسين لا في جنس واحد. فقد أعيد تشكيل مفهوم النسائية قياساً بالإنتاج والاستهلاك الاجتماعيين، وهو، استطراداً، ما لم يتم بمعزل عن موقع الرجل نفسه في الإنتاج والاستهلاك"[25].

بالاضافة إلى هذا الترابط فإن ضمور الفصل بين الجنسين وتزايد انخراط النساء في الشأن العام، يبدو أنهما أديا إلى تقوية النزعة الذكورية السلبية ضد النساء. في المقدمة التي كتبتها مي غصوب حول كتاب "الرجولة المتخيلة" تورد حادثة تشير إلى نفس المعنى الذي نرمي اليه، فتقول أن صديقة لها نصف المانية/نصف ايطالية، وهي مهنية تعمل محررة كتب، أخبرتها أنها قررت أن تعيش وتعمل في روما لأن ذلك أشد راحة لها. فهي تتحرك مهنيا في وسط أغلبيته الساحقة رجال، وقد قررت العيش في إيطاليا لأن غالبية رجال ذاك الوسط من الألمان بدوا عدوانيين. اما في روما، حيث التقاليد الذكورية أقوى، فأحست براحة أشد في العلاقة مع الوسط المهني نفسه. وفي النهاية اكتشفت ان الرجال في ألمانيا، عرضة لكثير من التحدي والمنافسة في موقعهم البيتي والتقليدي، وهذا ما نمَى لديهم موقعا دفاعياً حيال المرأة في العمل. وعلى العكس، يحس الرجل في إيطاليا بأنه لا يزال رب المنزل، وهذا لا يشعره بأن وجود المرأة في المكتب ينطوي على أي خطر.[26]

ونسجاً على ما سبق، يمكن التفكير بأن عنترة عاش في مجتمع ما قبل إسلامي ترتسم فيه خطوط الفصل بين الجنسين بشكل واضح. وبالتالي لم يكن عنترة قلقاً بشأن سلطته التي لم يكن للنساء أي منفذ مباشر عليها. كما أن عنترة (والرجال عموماً) لم يكن مهدداً من أن تنافسه امرأة على مكانته لذلك لم يبخل عليها في العطاء والحب والحماية. اما المنافسة الحقيقية التي يستشعرها فكانت من ذكور آخرين لهم مثل ما له من إمكانيات لإثبات الأهلية. التنافس كان ذكورياً وله قواعد محددة، وخطوط الفصل بين الجنسين كانت تحمي الجنسين من خطر امحاء جنس في الجنس الآخر، وكيفما كانت سلوكيات الرجال فلن يطالها وسم الأنوثة التحقيري.

ويبدو لنا أن انفتاح الثقافات الجنسوية الفرعية على بعضها البعض اليوم، قد جعل الجنسين أو بالأحرى جعل الجنس الذكري يحتمي في ترسيمة جندرية محددة الاختلاف. وربما من قبيل التشدد في رسم الحدود الفاصلة يمكننا فهم العدوانية التي يتزايد التعبير عنها تجاه الإناث. وتوضيحا لهذه الفكرة أورد في ما يلي أغنية رائجة اليوم (ضاربة) يلقيها فارس الأغنية العربية، فارس كرم (لاحظ تطابق الأسم). هي أغنية تبدأ بموسيقى هادرة على وقع الطبول ومنجيرة صارخة، وكورس كله من

---

[25] مي غصوب، إيما سنكلير ويب، الرجولة المتخيلة، بيروت ، دار الساقي؛ 2002، ص 9

[26] غصوب، المرجع نفسه، ص 8

الذكور يتدخل من حين لآخر مؤازراً المغني بهتافات كأنها طالعة من أبواق الحرب، تقول كلمات الأغنية:

شفتا بشارع الحمرا بإيدا فيه قلم حمرا عم بتشيلو من الجزدان
حلمتني بمناما فجأة طلعتلها قداما عامل حالي مش سئلان
حكيتني..... ما حكيتا
ضحكتلي.....ما رديتا
حسستها مش فرقانة عندي جمالها
عرفتني.....آخر همي
لما تعبت مني
فلَت على بيتها فلَت.....لحالا لحالا
مرة ثانية بالصدفة شفتها مش عم تعرف تمشي كان مضايقها الفستان
لما صرت مقابيلها عملت حالي مش فاضيلها ما بيعجبني مين ما كان
حكيتني..... ما حكيتا
غمزتني.....ما رديتا
حسستها مش فرقانة عندي جمالها
عرفتني.....آخر همي
لما تعبت مني
فلَت على بيتها فلَت.....لحالا لحالا

ليس من المستغرب أن "تضرب" هذه الأغنية، وأن تكون من الاغنيات التي يرقص عليها الشبان والشابات بفرح. إنها أغنيتهم. أغنية الغنج الذكوري المتمنع، وأغنية الطلب الأنثوي المبادر. إنها أغنية عنترية بامتياز. غير ان ساحة المعركة التي يخوض عنتر حربه فيها لم تعد هي هي. فبدلا من الفروسية والشجاعة من أجل المرأة، نشهد اليوم عنتريات بمواجهة المرأة. وبدلا من عنترة الذي يستجدي وصال المرأة هناك اليوم عنترة الساعي للانتصار على المرأة. وليست هذه الأغنية هي الاشارة الوحيدة للعنتريات الحديثة، فمن ينظر جيداً في ما يجري حواليه، يلاحظ اختلاف منحى اللعب بين الجنسين لجهة عرض انثوي وتمنع ذكوري. ومن الإشارات على ذلك نلاحظ القبول بتعدد الزوجات حتى من بعض الإناث القادرات على الاستقلالية، وعنوسة البنات حتى الجميلات (عزوفاً أو اضطراراً)، وتزايد اشتراط الذكور وتطلبهم (البعض يطلب شريكة منتجة أضافة الى المواصفات

التقليدية).

تعلمنا دراسات النمو أن الذكور يمرون بلحظتي كره للنساء، لحظة الخروج من الطفولة الأولى (أو لحظة الكمون) ولحظة الخروج من الطفولة الأخيرة (أو لحظة المراهقة) وفي الحالتين يكون سبب الكره هو الخوف على الذات وعلى الانتماء فيصير التعلق بجماعة الرفاق شديداً. إن هذا الخوف عينه جعل عنترة القديم (الباحث عن انتماء نقي للقبيلة) وعنترة الحديث (الباحث عن انتماء نقي للرجولة) يخاطران ويتكبران ويعنفان (وإن كان كل منهما في اتجاه معاكس للآخر) ولكن إلى متى سيبقى نموذج عنترة حياً؟ العنتريات تعني سلوكاً فائضاً ومحيداً عن هدفه، إنها هدر في الطاقة. وطالما بقيت ثمة أواصر ما بين الرجولة والعنترة، فهذا يعني أن ثمة عصاباً ما ينبغي البحث عنه ليس فقط لدى الذكور وإنما لدى الإناث أيضاً. والأجدى هو البحث عن قناة ما في قلب المجتمع تسرَب ظلماً قد لا يكون مرئياً.